

وساطة بين البلاغة والنقد

أ.حبيبي عبد الله

قسم الأدب العربي

جامعة الدار

الملخص:

هذا المقال يتناول بالبحث والدراسة جذور العلاقة التي تجمع مجالات البحث في النقد الأدبي، مع نظيراتها في البلاغة العربية، وما طرحه ذلك من إشكالية الفصل بين الحقلين في تراثنا العربي القديم، حيث تتداخل وتتشابك المواد والعناصر لدرجة يصعب فيها التمييز بين ما هو من البلاغة وما هو خارج عن مجالها، أو ما هو من النقد وما يخرج عن إطاره. وشمل ذلك التداخل والامتزاج كتباً برمتها تحمل عناوين وأسماء يلتبس أحياناً على الباحث معرفة انتماء كل فيها والتخصص الذي يتناوله بالبحث، ومن هنا كان هذا المقال في موضوعه بمثابة عرض لهذه الإشكالية وتنبية إلى واقعيتها في مجال البحث والدراسة. وفتح المجال أمام الدارسين لتناولها بمزيد من الدراسة والبحث، وطرح الحلول المناسبة لها.

Abstract:

This article deals with research in literary criticism, and its counterparts in Arabic rhetoric. The problem of the separation of the two fields in old Arabic results from the overlapping of materials and elements to the point where it is difficult to distinguish between what is rhetoric and what is not. This study opens the way for students to closely look for appropriate solutions.

مقدمة:

حاورني زميلي في عنوان قرأناه، يجمع في صياغته بيان البلاغة والنقد، ولكنه يرتب النقد مقدماً على البلاغة. فقال لي مجادلاً وكأنه أحس بغيره

على البلاغة: كان ينبغي تقديم البلاغة على النقد في ترتيب هذا العنوان لأنها أساس للنقد. فقلت : بل أرى أن النقد أولى بالتقديم في هذه الحال. فقال لماذا ؟ ثم قطع حديثنا طارئاً، وانفصل كل منا عن صاحبه دون غلبة ولا انتصار في هذه المسألة. وأحسست أن زميلي لم يكن مستعداً للمجادلة في هذه القضية النقدية، ولم يكن مسلحاً بالأدلة والبراهين العلمية التي تمكنه من إثبات فكرته، والانتصار لها. ولم أكن أنا كذلك وإنما أردت بمعارضتي له، أن يدلني على الصواب العلمي في هذه الجدلية، لعله أن يكون أحوط مني بها، ولكنني كنت أميل إلى ترجيح كفة الرأي الأول الذي يعطي الأسبقية والفضل للنقد وليس العكس، بحكم أن النقد أوسع مجالاً، وأرحب ثقافة، وأوثق صلة بالأدب من البلاغة.

وإذا نحن أردنا البحث في هذه الإشكالية، للخلوص إلى نتيجة مرضية، فلا مفر من الرجوع إلى غابر زمن النشأة الأولى، حيث نقطة البداية، لانطلاق ذينك العلمين من علوم العربية وآدابها، حيث كان الامتزاج في المسار التاريخي لكل منهما، ثم الانفصال والاستقلال عن بعضهما، مع بقاء أواصر العلاقة المستمرة إلى يومنا هذا.

وبالرجوع إلى مختلف التعريفات والحدود التي وضعها العلماء قديماً وحديثاً للنقد والبلاغة، فإننا نلمس ما يؤكد وجود العلاقة الوطيدة بين حقل البلاغة من جهة، وحقل النقد من جهة أخرى، ناهيك عن العلاقة التي تجمع علوماً أخرى بعضها ببعض في تقاطعات لغوية وأدبية.

أ - استقراء تاريخي:

1. التداخل والامتزاج:

تحدد نقطة البداية لامتزاج وتداخل النقد مع البلاغة العربية، عند التقائهما الأولي في ميدان الأدب بين جهود الكتاب والشعراء وعلماء اللغة والمتكلمين حين اجتهدوا لمعرفة (طرق إدراك جيد الكلام، وكيف يكون التفريق

بين كلام جيد وآخر رديء. وهذا مفهوم النقد. أو الإقتدار على صنع كلام جيد، من الشعر أو النثر. وهذا مفهوم البلاغة، وبذا امتزج النقد بالبلاغة).¹ وهذا التداخل المرحلي الذي حدث بين البلاغة والنقد، قد يغري البعض بإنكار هوية أحدهما لحساب الآخر بتأويل أو بدون تأويل². ومن باب الإنصاف، ولأجل الابتعاد عن الوقوع في هذا الإغراء والإنكار لطرف على حساب طرف آخر، يرى بعض الباحثين أنه لا يمكن الإدعاء (أن الملاحظات الأولى حول النص الشعري القديم، ملاحظات مسجلة ومُحفوظة منذ البداية للبلاغة، أو النقد الأدبي)³، ومن ثمَّ فهؤلاء الباحثون المُنصفون لا يرون غضاضة في أن يستثمر كل من مؤرخ النقد الأدبي، ومؤرخ الفكر البلاغي الظواهر نفسها، باعتبار أن البلاغة مكّون من مكّونات النظرية النقدية، وثمرة من ثمرات الملاحظة النقدية الأولية⁴. غير أن مثل هذا الكلام بالرغم مما فيه من لباقة واعتدال ووسطية، فإنه في حقيقته يدلّ على واقعية الإشكالية التي يطرحها مقالنا هذا.

2. البيئات العلمية للنقد:

كان النقد منذ ظهوره إلى غاية منتصف القرن الثاني الهجري، لا يزال يجري على الذوق والطبع والفطرة، والانفعال بالأثر الأدبي، مع وجود بعض الإشارات اللغوية، أو اللّمحات البلاغية التي تعتمد هي الأخرى على الحس الفطري، غير أنها على أهميتها وقيمتها، لم تُحدث تغييراً جذرياً في طبيعة النقد في هذه المرحلة⁵. ولعلّ من أبرز سماته لهذا العهد صدوره على شكل أحكام جزئية ونظرات عفوية تتيمّ عن ذوق بسيط متأثري، يرد في جمل مركزة تنزع نحو

¹ - د. محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي ط 1 / 2006 ص 200، 201.

² - د. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، بيروت لبنان 1989 ص 41.

³ - المرجع نفسه، ص 41.

⁴ - المرجع نفسه، ص 41.

⁵ - المرجع السابق محمد كريم الكواز (البلاغة والنقد المصطلح والنشأة..)، ص 201

التعميم غالباً. وتبعاً لذلك كثرت الأحكام التي تصف شاعراً، من خلال بيت قاله، بأنه أشعر العرب، أو أن بيته من أبرع ما قالت العرب، أو أن قصيدته سمط الدهر، وغير ذلك من الأحكام التي يكون في الغالب مصدرها الانفعال والتجاوب النفسي مع الأثر الأدبي، ومن ثم إصدار أحكام قيمة غير معلة عليه¹. ويتطور الحياة الفكرية للعرب وانتشار الإشعاع الثقافي والحضاري، بدأت بعض العلوم تتبلور وتتشكل، ومن بينها علوم اللغة والبلاغة، وصار لعلمائها تأثير في الحياة الثقافية وبالأخص ما تعلق بدراسة إعجاز القرآن. وفي هذه المرحلة أخذ النقد يدور في فلك هذه العلوم ويحتك بها ويتأثر بها، ويرتكز عليها، ويستعين بأدواتها المختلفة في دراسة الشعر ونقده² ونتج عن ذلك أكثر من بيئة علمية ذات صلة بالنقد، منها بيئة اللغويين، وبيئات الكتاب³.

وقد تعرض الجاحظ بالحديث عن هاتين البيئتين فقال: لو قد جلستُ إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحي بن نجيم وأبي مالك بن كركرة، مع من جالستُهُ من رواة البغداديين، فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده...⁴. وقال عن الكتاب في تلك البيئات لو رأيتُ البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعمّ، وعلى السنة حُذِّق الشعر أظهر⁵. وقال أيضاً: لوأما أنا فلم أرَ أمثلاً طرقةً في البلاغة من الكتاب، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً⁶.

¹ - د. صالح هويدي، النقد الأدبي الحديث قضاياه ومناهجه، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط1 / 1426م، ص

15.

² - المرجع السابق محمد كريم الكواز (البلاغة والنقد المصطلح والنشأة..)، ص 201.

³ - نفسه، ص 201.

⁴ - أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين بتحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة،

ج4، ص 23.

⁵ - نفسه، ص 24.

⁶ - المصدر نفسه (البيان والتبيين)، ج1، ص 173.

وقد وُضعت في هذا العصر النواة الأولى لعلوم العربية، وفي مقدمتها اللغة والنحو، حيث هياً الله للغة جهايزة العلماء المخلصين الذين قاموا بضبط شواردها، وسنوا لها القواعد التي تضمنت عصمتها من الخطأ والزلل والضياح، أمثال: يحيى بن عمر، وعيسى بن عمر الثقفي، وعبد الله بن إسحاق الحضرمي، وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم.¹ ومن هنا نرى أن نشأة هذه العلوم في اللسان العربي، كانت عاملاً قوياً في اتساع مجال النقد الأدبي، وذلك لأنها أضافت مقاييس جديدة إلى مقاييسه في الشكل والوزن والأسلوب. وتلك المقاييس كانت تهدف إلى احتذاء العرب في سنن كلامها.² وترتب عن هذا كله أن اقتترنت العملية النقدية بأصول لغوية من جهة، وبأصول بلاغية من جهة أخرى، وأصبح النقد لا يُبحث إلا من خلال كتب هؤلاء اللغويين والبلاغيين، وقلما يُعثر على مصادر رئيسة في النقد الخالص.³

ومن جهة أخرى تولد من بيئة اللغويين كيان نقدي، يمكن تسميته بالنقد اللغوي، مهمته النظر إلى القضايا اللغوية في النص ومدى انطباقها مع القواعد التي أخذ العلماء يبتونها، بداية من عصر التدوين في أواخر القرن الثاني الهجري.

وأوضح مثال على هذا النوع من النقد كتاب "الموشح" للمرزياني (384هـ). كما تولد من بيئة الكتاب والبلاغيين نقد مواز يمكن أن نطلق عليه "النقد البلاغي" على نحو ما وضع الجاحظ (225هـ) في كتابه "البيان والتبيين".⁴

3. المادة العلمية للنقد:

1 - د. مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، 1998، مكة للطباعة، ص 104.

2 - نفسه، ص 105.

3 - المرجع السابق محمد كريم الكواز (البلاغة والنقد المصطلح والنشأة..)، ص 202.

4 - المرجع السابق نفسه، محمد كريم الكواز (البلاغة والنقد المصطلح والنشأة..)، ص 203/202.

إن النظرة المتفحصة في المادة النقدية، تقود إلى نتيجتين:

1. قلة المادة النقدية الخالصة، حين عزلها عن بقية العلوم. وهذا الحكم يكاد ينسحب على جميع العصور الأدبية، باستثناء القرن الرابع الذي طغت على ساحته الأدبية حركة نقدية بارزة حول مذهب أبي تمام والبحتري، وحول شخصية المتنبّي¹. ولربّما أمكّننا القول بأن سبب هذا ومرجعته إلى أن النقد آنذاك لم يكن يواكب العمل الإبداعي في ميدان الأدب، ولأجل ذلك نجد كثيراً من الأعمال الأدبية، والعشرات من الدواوين التي أغفلتها كتب النقد ولم تلتفت إليها².
2. توزّع المادة النقدية أشتاتاً في كتب اللغة والبلاغة واختلاطها بها إلى أقصى حد، ولعل هذا مردّه إلى أن ظاهرة التخصص التي نعرفها اليوم، لم تعرفها آنذاك الحضارة العربية الإسلامية ذات الثقافة الموسوعية. وإذا نحن قمنا بعملية جرد للمكتبة العربية القديمة في مجال النقد، لعثرنا على ما لا يُعد من الكتب في مناحي مختلفة من المعارف (اللغة والبلاغة والتاريخ والتراجم والطبقات). ولكن قلّما نجد بينها كتباً في النقد الخالص³.

4- البلاغة والنقد في حضن الدراسات الإعجازية:

اهتم الدارسون المسلمون بدراسة القرآن الكريم وبيان إعجازه، وصنفوا الكثير من المؤلفات حول موضوع الإعجاز في القرآن الكريم، كما عبّروا عن وجهات نظرهم بشأن حقيقة الإعجاز. وقد تباينت آراؤهم وتفسيراتهم، فصاروا مذاهب واتجاهات لكل منهم حُجْجُه وبراهينه، فمنهم من رأى إعجاز القرآن بالصرّفة، ومنهم من قال إنّ الإعجاز ببلاغة القرآن، ومنهم من قال هو بنظمه⁴.

¹ - المرجع نفسه، ص 203.

² - المرجع نفسه، ص 203.

³ - المرجع نفسه ص 204.

⁴ - د. محمد تحريشي، - النقد والإعجاز - اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 15.

وكانت طائفة المتكلمين على رأس العلماء الذين حملوا لواء الدراسات القرآنية، فظهرت على أيديهم كتب الإعجاز التي أفرزت أهم نظرية في تراثنا البلاغي وهي "نظرية النظم".¹ وإضافة إلى هذا فقد كان القرآن مولداً لكثير من العلوم عُرفت باسم علوم القرآن كعلم التفسير، وهو أول العلوم، وكانت للمفسرين فيه مذاهب تتناسب مع اتجاهاتهم، فاللغويون والنحويون حملت كتبهم اسم "معاني القرآن" كالكسائي والأخفش والمازني والفراء والزجاج وغيرهم. وكانت كتبهم تمزج بين النحو واللغة.² وأفرد علماء آخرون اللغة دون النحو فألّفوا كتباً تحمل عنوان "غريب القرآن" كأبي عبيدة، والدّوسي، وابن قتيبة، والبيهقي وغيرهم. بينما اتجه علماء آخرون إلى جوانب معينة في اللفظ القرآني، وقصروا عليها جهدهم اللغوي مثل كتاب "لغات القرآن" للأصمعي والفراء وأبي زيد الأنصاري، ثم كتب الفراء كتاباً بعنوان "المصادر في القرآن" وكتاباً بعنوان "الجمع والتنثنية". ومن هؤلاء من وجه عنايته للأسلوب القرآني، مع ملاحظة أن هذه الكتب جميعها تتفاوت طرائقها في تناول الدراسة.³

أما من حيث النقد فقد كان للدراسات الإعجازية أثرها البالغ في تطوره من خلال تعرض مجموعة من العلماء للقرآن الكريم وما اشتمل عليه من المعاني ومظاهر الإعجاز، فتعرضوا لتعبيره، وكيفية تصرفه في الخطاب، وترتيب الكلام، وطرق أداء المعنى، كما تعرضوا لإعجاز القرآن البياني بمقارنة القرآن بالشعر العربي القديم. الأمر الذي أحدث اختلاطاً بين مقاييس النقد من جهة والدراسات القرآنية من جهة أخرى⁴، واستخدم علماء الإعجاز مصطلحات

¹ - ينظر أ. حسين الأسود، أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم، "مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق" المجلد 81، الجزء 1 ص116

² - المرجع نفسه ص116

³ - د. بكرى شيخ أمين - التعبير الفني في القرآن - دار الشروق، الطبعة الرابعة، 1980، ص 155.

⁴ - المرجع السابق محمد كريم الكواز (البلاغة والنقد المصطلح والنشأة..)، ص 111.

البلاغيين محاولة منهم لبيان بديع الأسلوب القرآني. وما يلاحظ على هذه الدراسات، أن كثيراً من المقاييس النقدية ظهرت على أيدي النقاد الأوائل، كانت في أغلبها متأثرة بمقاييس التعبير القرآني، إذ لم يحاول النقاد وضع قواعد عامة يناقشون من خلالها أصول الجودة والإتقان الفني، بسبب خشيتهم من أن تصطدم مقاييسهم بأسلوب القرآن البديع، فيخترقون المحذور الشرعي¹، فراحوا يدرسون القرآن الكريم في رويّة وأناة، فظهرت أمامهم طرق وأساليب شتى لأداء المعاني، ومن ثم وضعوا حدودها واتخذوها مقياساً يُفاس به كل عمل أدبي سواء كان شعراً أو نثرًا، دون أن يراعوا الجنس الفني الذي يتناولونه واختلافه مع أسلوب القرآن².

ولا شك أن مسائل النقد في الشعر، غير مسائله في النثر، ولم يلتفت النقاد إلى هذا الاختلاف البين، بل طالبوا الأدباء جميعهم بأن يتمثلوا الأسلوب القرآني في أدائهم للمعاني أينما كانت في الشعر أو النثر.³

5- نماذج كتب خلطت البلاغة بالنقد:

احتدم التنافس بين البلاغة والنقد، على المساحة المعرفية التي يحتلها كل منهما، والتي تدخل في مجال اختصاصه. فأصرت البلاغة على الاستقلال بكل ما يتصل بالبنية النصّية للخطاب في بُعديها الشعري والتداولي، وما يتصل بهما من عناصر تفسيرية نفسية وسوسولوجية وتاريخية مما يدخل في مجال اللغة الواسع. ويبقى للنقد الأدبي أن يُركّب المواد البلاغية مع ما يراه من مواد أخرى تتعلق بالأجناس الأدبية وسيرورة تلقيها وما إلى ذلك⁴.

¹ - المرجع نفسه ص 111.

² - المرجع نفسه، ص 111.

³ - المرجع نفسه ص 112.

⁴ - المرجع السابق محمد العمري - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 41.

وعلى هذا الأساس يرى الباحثون أن العمل الذي قدّمه ابن المعتز "كتاب البديع" عملاً "بلاغياً" حتى وإن جاز لنا القول بأن المسألة التي تناولها بالدرس (الصراع بين القدماء والمحدثين)، هي مسألة نقدية. كما اعتبروا أن عمل قدامة بن جعفر عمل نقدي (بحكم أنه يقدم تركيباً ونسقاً تفسيريًا)، حتى وإن كانت موادّه الأساسية بلاغية.¹ وهناك أعمال بلاغية صرفة مثل "سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي، و"أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني. كما أن هناك أعمالاً نقدية واضحة المعالم مثل "عيار الشعر" لابن طباطبا و"نقد الشعر" لقدامة بن جعفر و"الموازنة" للآمدي و"الوساطة" للقاضي الجرجاني وغيرها. بينما وُجدت نماذج كتب توسطت في موقعها بين البلاغة والنقد مثل "منهاج البلغاء" لحازم القرطاجني لأن محتواه بلاغي في أغلبه، غير أن نسقه العام يتّجه نحو صياغة نقدية تفسيرية، وبالخصوص عندما يتناول العلاقة بين الأغراض والأوزان ويتعمق في الأساليب.² ولكن الكتاب الذي يعدّه الباحثون نقطة تحوّل النقد إلى بلاغة، أو بتعبير آخر الكتاب الذي أمعن في خلط المادتين ولم يفصل بينهما، هو كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري (395هـ)، ففي أول كلامه في هذا الكتاب يشير أبو هلال العسكري إلى أنه يكتب في علم البلاغة، لأنه يراه أحق العلوم بالتعلم، وأولاهما بالتحفظ بعد معرفة الله، وبواسطة علم البلاغة يُدرك إعجاز القرآن³، مثلما يقول.

وإلقاء نظرة في مواضيع الكتاب وأبوابه، ندلنا على أن كتاب الصناعتين، إلى جانب كونه كتاباً بلاغياً، هو كتاب نقدي أيضاً، وهذا يؤكد أن قواعد البلاغة في القرن الذي توفي العسكري في أخصياته، كانت لا تزال مختلطة بمسائل النقد الأدبي، رغم وجود علماء حاولوا آنذاك عملية الفصل بين قواعد

¹ - المرجع نفسه، ص 41.

² - المرجع نفسه، ص 41 / 42.

³ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، مكتبة المصطفى الإلكترونية، www.almostafa.com

البلاغة ومباحث النقد الأدبي.¹ والفرق الذي يمكن رصده بين التناول النقدي والتناول البلاغي في تراثنا القديم، هو أن التناول النقدي سمّته التطبيق الذي يفتقر إلى الأساس النظري²، بل يمكن وصفه بأنه تناول شخصي يُنظر في عمل شاعر بعينه وشخصه، معرضاً للمؤثرات الخارجية، الاجتماعية وغيرها. وذلك واضح في تتبع ما قيل في سرقات المتنبي. والاختيار قد يبدو عملية نقدية صرفاً ولكنه ينتهي كما وقع بالفعل عند المرزوقي في شرح الحماسة، إلى استنباط الأسس التي تحكم اختيار أبي تمام، أي الاعتبارات التي تجعل الماخوذ احسن من المتروك وهذا هو ظهر العملة البلاغية التي تجعل وجهها عند الجرجاني وما الذي يجعل كلاماً أحسن من كلام ؟³، فيكون الاختيار والتناول الفني عملاً نقدياً بلاغياً واقعه إبراز القيم البلاغية وتكريسها. وحين سمى قدامة بن جعفر كتابه "نقد الشعر" فهو كذلك، باعتبار أنه قدّم خطة كاملة لتفاعل المكونات اللغوية وغير اللغوية (الأغراض والمعاني).⁴

أما اختيار حازم القرطاجني لكتابه "منهاج البلغاء" وهو يقوم على خطة مشابهة لنقد الشعر، فهذا الكتاب قد يثير شيئاً من الجدل {لأن صاحبه أصرّ على الاسم، وعرف البلاغة تعريفاً يُعطيها القيمة التي يريد لها لعمله، العلم الكلي، أي أنها ليست بلاغة جزئية مما هو معروف، فلا يحق لغيره أن يغيّر انتماء الكتاب}⁵، وينتج عن هذا، حقيقة علمية مؤداها {أن البلاغة التي هي علم كلي هي البلاغة النقدية التي تتصدى للنصوص وليس النقد. وقد كان شديد الارتباط بالشعر، غير بُعد من أبعادها}⁶.

¹ - المرجع السابق محمد كريم الكواز، (البلاغة والنقد المصطلح والنشأة..)، ص 255

² - المرجع السابق محمد العمري-البلاغة العربية أصولها وامتداداتها - ص 43.

³ -المرجع نفسه، ص 43.

⁴ -المرجع نفسه، ص 43.

⁵ -المرجع نفسه، ص 43.

⁶ -المرجع نفسه، ص 43.

إن زاوية النظر إلى الكتب والمؤلفات، تحدد طبيعة البحث -في كثير من الأحيان- بغض النظر عن الموضوع، فقد يقال على سبيل المثال إن موضوع السرقات في تراثنا القديم من القضايا التي اختص بها النقد، وليست من اختصاص البلاغيين، ولكنّ الواقع أن هذا الموضوع قد عُولج معالجة بلاغية خالصة عند عبد القاهر الجرجاني في أسراره، إذ درسه من زاوية التمييز بين المعاني التخيلية الشعرية والمعاني العقلية غير الشعرية. والسرقة إنما تكون فيما هو تخيلي، كما لو عولجت قضية السرقة في عصرنا الحاضر من زاوية بلاغية ضمن مبحث التناسل.¹

ب. الترتيب الزمني لعمل النقد وعمل البلاغة:

الأصل في عمل النقد أن يبدأ من حيث انتهت البلاغة، باعتبار أن البلاغة فنّ ودستور جمالي، في حين أن النقد حكم عليه. فدور البلاغة منوط بالطريقة الصحيحة التي تُعطي الأثر الأدبي الحُسْن والجودة، بينما دور النقد منوط بالحكم على تلك الطريقة ومدى تحقق نسبة الجودة فيها²، أو بعبارة أخرى نقول {إن الحكم النقدي إنما هو معيار للمُثل الجمالية، ولَمَّا كانت المثل الجمالية هي ذاتها الفنون البلاغية، كان الحكم النقدي تعبيراً وضبطاً للفنون البلاغية}³. إذاً فعمل النقد يأتي تابعا لعمل البلاغة، وأما من حيث الوجود والنشأة فإن بعض الباحثين يرى أسبقية النقد على البلاغة {لذلك أن كل شاعر إنما هو مقوم نفسه، وحكم شعره ومقدم لأشعار الآخرين، ويمكن أن يقال إن النقد العربي وُلد مع الشعر، وأول نقد وصلنا هو ما نلاحظه في العصر الجاهلي من ملحوظات نقدية عامة تتم على ذوق فطري محض}⁴. ثم حدثت النقلة النوعية بتطور النقد على

1 - المرجع السابق نفسه، ص 42 / 43.

2 - المرجع السابق أ. حسين الأسود أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم ص 119

3 - المرجع نفسه، ص 119.

4 - المرجع نفسه، ص 115.

أيدي ثلثة من اللغويين والنحويين والرواة، وبلغ الذروة في القرن الرابع الهجري على يد ابن طباطبا(ت322هـ)، وقدامة بن جعفر(ت377هـ)، والآمدني(ت371هـ)، والقاضي الجرجاني(ت392هـ) وغيرهم.¹

والذي يدعّم هذا الرأي القائل بأسبقية وجود النقد -زمنياً- على وجود البلاغة، أن العرب مارسوا نقد الشعر أو نقد الكلام جُملة -أي تمييز جيده من رديئه والحكم عليه قبل ظهور المصطلح بزمان طويل.² وهذا يعني أن النقد عند العرب كان طبعا فيهم مارسه حتى من لم يقل شعراً. وفي هذا الشأن يقول ابن رشيّق القيرواني {وقد يميّز الشعر من لا يقوله كاليزّاز يميز من الثياب ما لم ينسجه، والصيرفي يخبر من الدنانير ما لم يسبكه ولا ضربته، حتى إنه ليعرف مقدار ما فيه من الغشّ وغيره فينقص قيمته}.³

وفي المضمّار نفسه يقول حازم القرطاجني: {ولا شك أن الطّباع أحوج إلى التقويم في تصحيح المعاني والعبارات عنها من الألسنة إلى ذلك في تصحيح مجاري أواخر الكلام، إذ لم تكن العرب تستغني بصحة طباعها وجودة أفكارها عن تسديد طباعها وتقويمها باعتبار معاني الكلام بالقوانين المصحّحة لها، وجعلها ذلك علماً تتدارسه في أُنديتها}.⁴

وفي هذا العهد، وبموازاة مع النقد كانت البلاغة العربية لا تزال مستقرّة في جبلّة العرب، غير أن معالمها اتضحت في كلامهم من الشعر والنثر والخطابة والحكم والأمثال.⁵ {وقد احتفظت المصادر بجملّة من الأخبار عن هذه

¹ - المرجع نفسه، ص 116.

² - د. عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1997، ص 21.

³ - المرجع السابق محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة...، ص 21.

⁴ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ص 26.

⁵ - المرجع السابق حسين الأسود - أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم، ص 116.

الفترة، تتضمن ملاحظات تمثل -رغم تواضعها- اللبنة الأولى في العمل النقدي والبلاغي، وتشير إلى بداية الاهتمام بقضية الصياغة¹. إلى أن جاء النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، حيث ظهرت إلى الوجود بيئة جديدة عُنت بشؤون البلاغة، هي بيئة الفلاسفة المتولدة عن نقل آثار اليونانيين من الفلسفة والمنطق وكلّ ما خلفوه في شؤون الفكر.² وبذلك وُجدت طبقة كبيرة من المتفلسفة وكانوا طائفتين: طائفة من نقلة السريان ومترجميهم، وأكثرهم من النصارى، وطائفة من العرب الذين أكبوا على قراءة المترجمات والمصنفات اليونانية، وأدى التفلسفُ بكثيرين من الطبقة إلى أن يتخذوا من الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية، أساسا في تقويم نماذج الأدب العربي وتقدير قيمها البيانية³.

وأخذت البلاغة في تطور مستديم، إلى أن آتت أكلها، وظهرت أولى ثمراتها بظهور كتاب البديع لابن المعتز الذي دشّن لظهور بعض الفنون البلاغية في شكلها الاصطلاحي المعروف وكان ذلك مع نهاية القرن الثالث الهجري.⁴

ج- النقد بذرة البلاغة ونواتها:

مما سبق عرضه من ظروف النشأة وملابساتها ومراحل النضج والتطور، عبر التاريخ المشترك للنقد والبلاغة العربية، يتبين أن النقد كان هو النواة لنشأة علم البلاغة العربية، إذ كانت الأحكام النقدية الأولى، واللّمحات والإشارات اللغوية والبلاغية، أساسا لولادة قوانين وقواعد علمية ترشد الكتاب والشعراء إلى ما ينبغي التزامه في التعبير عن الانفعال والشعور والخواطر

¹ - د. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص 25.

² - د. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط9، دار المعارف، ص 64.

³ - المرجع نفسه ص 64.

⁴ - المرجع السابق حسين الأسود، أصول العلاقة بين البلاغة والنقد، ص 116.

والأفكار، وهي القوانين المسطرة في شتى فروع وفنون البلاغة، من المعاني والبيان والبديع.¹

ولا غرابة أبداً في حدوث التعايش والتداخل بين المجالين مجال النقد ومجال البلاغة، بل هو أمر طبيعي بحكم أن العلمين كليهما يسعيان لتحقيق الصدق والقوة والجمال في الأداء والتعبير الأدبي، فإذا كانت البلاغة تأخذ بيد الأديب إلى الصواب، فإن النقد من جانبه يوقف الأديب على ما أصاب من حسن، وما وقع فيه من قبح وبالتالي هما متّحذان موضوعاً.² وإن وُجد الاختلاف بينهما لا محالة في المنهج والغاية فإنه يكون من الوجوه التالية:

أ- البلاغة في وظيفتها إيجابية سابقة، لأنها تُبادر إلى وضع القوانين التي تساعد الأديب على التعبير ونظم الكلام، وتألّفه بشكل واضح جميل. بينما يأتي النقد مفروضاً بعد إتمام إنشاء الكلام، ويتخذ من قوانينه مقاييس تقييمية، تقديرية على الكلام ولذلك يأتي دوره متأخراً في وظيفته على البلاغة.

ب- عناية البلاغة بالأسلوب أكثر، إذ تفرض وجود مادة عند الأديب يريد أداءها مهما تكن قيمتها، ثم ترسم له طرق أداء مادته في أي قالب من القوالب، الشعر أو النثر أو غيرهما. أما النقد فعنايته بالجانبين معاً الأسلوب والمادة عن طريق تقديرهما وتقويمهما.³

ج- ارتباط البلاغة -أصلاً- بالقراء والسامعين، لأنّ البليغ ملتزم بمراعاة حاجاتهم الثقافية، ومستواهم في الفهم وما يحيط بهم من مؤثرات، ثمّ ينجز كلاماً على قدر تلك الأحوال والحاجات. في حين أن الأدب -أصلاً-

¹ - المرجع السابق محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة، ص 259.

² - المرجع نفسه ص 259.

³ - المرجع نفسه ص 259.

يكون ارتباطه بالأديب نفسه وتقدير مواهبه وآرائه في وضوح ودون تحريف، والقراء من جانبهم عليهم إعداد أنفسهم للدراسة والفهم.

د- تعتمد البلاغة على الأساليب العلمية، والتقسيمات العقلية المنطقية والجدل، بينما يعتمد النقد أكثر على الذوق، وما يثيره الأثر الأدبي في نفس المتلقي من أحاسيس وانفعالات.¹

الخاتمة:

وختاماً لعرضنا هذا حول إشكالية التداخل البحثي والموضوعاتي بين حقل البلاغة وحقل النقد، الناجم عن ظروف النشأة ومراحلها المشتركة، وحميمية العلاقة والتعايش القديم بينهما وما أفرزه ذلك من جدل حول منزلة البلاغة وقيمتها بجوار النقد، وفضل أحدهما على الآخر، ومدى تكاملهما الوظيفي في العمل الإبداعي، وتداولهما الأدوار. وتعقيباً على ما تم عرضه أو جمعه من معطيات في سطور هذا المقال، فإننا نخلص في نهاية هذا العرض إلى مجموعة ملاحظات واستنباطات ترجح الكفة لصالح النقد على البلاغة:

1. مثل النقد اللبنة الأساس للدرس البلاغي، من خلال أولى الملاحظات التي كانت منطلقاتها نقدية عفوية تأثرية، أثارها بعض الشعراء حيال نظرائهم الآخرين في المحافل الأدبية وأسواق الشعر الجاهلية.
2. سبق النقد في وجوده على وجود البلاغة بزمن ليس بالقصير، وارتباط وجوده الأولي بوجود الشعر، الشيء الذي أهله لاحتضان أولى بذور البلاغة ورعايتها إلى أن آنت أكلها.
3. شمولية النقد في مجالاته المعرفية، وعلاقات التقاطع التي تجمعها بالعلوم الأخرى، تعطيه سلطة على مجالات البلاغة بفروعها وفنونها.

¹ - المرجع نفسه، ص 259.

ومهما يكن من تحيز غير مقصود في الرأي لطرف على حساب طرف آخر، فإنه ينبغي تحرّي الدقة المتناهية في نسبة العناوين والبحوث والدراسات إلى مجالها الخاص بها- البلاغة أو النقد- عن طريق الاحتكام إلى الموضوع المطروق والمدرّوس والمنهج والغاية المرسومة في خطة البحث والدراسة.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب:

- القرآن الكريم.
- 1- أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، ج4، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة(ط5)،
1985.
- 2- بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق (ط 4)، 1980.
- 3- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، مكتبة المصطفة الإلكترونية. www.almostafa.com
- 4- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي.
- 5- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره، منشورات الجامعة التونسية، 1981، مجلد(21).
- 6- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف (ط9).
- 7- محمد تحريشي، النقد والإعجاز، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،
2004 .
- 8- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 1989.
- 9- محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، ط 1، 2006.

- 10- عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر-بيروت، لبنان، ط 1، 1997.
- 11- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، 1998، مكة للطباعة.
- 12- صالح هويدي، النقد الأدبي الحديث قضاياها ومناهجها، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط 1، 1426م.

المجلات:

- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 81 الجزء الأول.